الفصل الثاني

الزيارة السرية لجمال عبدالناصر

إلى الاتحاد السوفيتي في يوليو ١٩٥٨

obeikandl.com

obeikandl.com

طلب النصيحة من خروتشوف [٣٩]

توجه عبدالناصر في ١٤ يوليو ١٩٥٨[٤٠] إلى بريوني[٤١]؛ ليبدأ زيارة رسمية إلى يوغوسلافيا بدعوة من الرئيس تيتو في الثاني من يوليو . وكان من المفترض وان يغادر عبدالناصر على متن اليخت الرسمي « الحرية « بصحبة اثنين من المدمرات المصرية تمام الساعة الرابعة من يوم ١٤ يوليو، حيث كان يُعتقد أن الطريق البحري هو الأكثر أمنًا من الطريق الجوي؛ ولذلك فقد قام الإسرائيليون قبيل حرب السويس بإسقاط طائرة تحمل سلاحا سرياً فوق مياه البحر الأحمر.

ومع بزوغ فجر الرابع عشر من يوليو، بدأ مركز الاتصالات في يخت «الحرية» يتلقى برقيات من دمشق مرسلة عبر القاهرة، جاء فيها أنه أثناء تبادل الأخبار الإذاعية بين مطاري دمشق وبغداد، أعلن المسئول في بغداد أن هناك شيئاً ما يحدث في المدينة، حيث امتلأت الشوارع بالدبابات والمشهد العام يوحي بأن هناك انقلاباً قد حدث . لم يرغب أحد في إزعاج ناصر لأن المعلومات لم تكن مؤكدة بعد ولكن بعد أن أعلنت إذاعة « B.B.C» في أولى نشراتها عن وقوع انقلاب في العراق، توجهتُ مباشرة إلى فيلا بريونكا وأيقظت عبدالناصر بنفسي، واستمعنا سويا للأخبار والمعلومات التي تتوارد من بغداد عبر القاهرة، وبدا الموقف واضحا عند الثامنة أو التاسعة صباحا، حيث اتضح أن الجيش العراقي بزعامة اللواء عبدالكريم قاسم قام بالاستيلاء على الحكم.

---

(39) Heikal , Mohammed. Sphinx and Commissar, P.93-100.

(٤٠) هذا اليوم يوافق يوم الثورة في العراق

(٤١) هو اسم بحيرة تقع في البحر الادرياتيكي وهو المقر الصيفي لرئيس يوغوسلافيا .

obeikandl.com

لقد كان الموقف يحمل في طياته الكثير من المخاطر، فقد بات واضحاً أن حلف بغداد[٤٢] قد انهار، وأن القوى الوطنية العربية قد أحكمت سيطرتها على مراكز الاتصال البرية بمنطقة الشرق الأوسط, وكذلك على الطرق البحرية من خلال قناة السويس, وسيطرت على منابع النفط العراقي . وعلمنا أن أمريكا قد أعلنت حالة الطوارئ في حوض البحر المتوسط . ولكن ماذا ستفعل إسرائيل ؟

لهذا أراد عبدالناصر العودة إلى القاهرة في أسرع وقت ممكن، وتستغرق المسافة إلى هناك عبر يخت « الحرية» حوالي ثلاثة أيام. كان من الممكن استخدام الطائرة، غير أن عبور البحر المتوسط يتطلب وقتا طويل وخطيرا لا يقل عن ثمانية ساعات . وقرر ناصر تمام الساعة الرابعة عصرا أنه سيغادر عبر اليخت . وعده الرئيس تيتو بأن يقدم له مدمرتين يوغسلافيتين يحرسون اليخت حتى يصل إلى الإسكندرية . في ذلك الوقت أصدر ناصر التصريح الأول الذي يعلن فيه مساندته ودعمه للثورة في العراق . وأرسل برقية إلى عبد الكريم قاسم . وعندما بدأ يحل الظلام، وصلتنا شائعات تدور حول عملية إنزال إجباري للقوات الأمريكية في بيروت وإنزال للقوات الإنجليزية في عمان .

بدأت يخت «الحرية» رحلتها في البحر إلى أن وصلت إلى البحر الادرياتيكي، بدأت الأنوار تنطفئ على اليخت وكذلك على المدمرتين وتلقى عبدالناصر برقية من تيتو يقول فيها : «أقترح على اليخت أن يتوقف وسأرسل لك زورقا يحمل رسالة مهمة» . وسرعان ما ظهر قارب من وسط عتمة الظلام الدامس وصعد الضابط البحري على متن «الحرية» . تضمن رسالة تيتو لعبد الناصر أن يتخلى عن السفر عبر البحر لأن الوضع سيصبح أكثر خطورة . واقترح عليه

(٤٢) المعروف باسم منظمة الاتفاق المركزي – سينتو، هو منظمة عسكرية – سياسية تأسست بمبادرة من إنجلترا . كانت النواة الرئيسة من خلال إبرام اتفاق في بغداد ٢٤ فبراير ١٩٥٥ ليكون حلف عسكري بين تركيا والعراق . وانضمت إليهم في نفس العام كل من بريطانيا، إيران وباكستان . واختفى هذا الحلف من على الساحة تماما في عام ١٩٧٩ .

أن يرسي السفينة في أقرب ميناء يوغسلافي, وكتب أنه من المرجح أن يجد طائرة إسعاف لكي تقوم بتوصيله إلى بلاده . وبعد ذلك وصلت رسالة أخرى من تيتو تفيد : بأنه تم تدبير أمر الطائرة وهي تنتظرك في مطار بولا . ولمزيد من السرعة، نصح تيتو ناصر بضرورة أن يبحر عبر إحدى المدمرات اليوغسلافية المرافقة له إلى أن يصل إلى بريوني وأضاف تيتو : «لكي أضمن بقاء التواصل معك والاتصال بك، فقد أمرتُ بإهدائك طائرتين مائيتين تحت تصرفك ليكونوا بمثابة حلقة الوصل بين اليخت والمدمرة التابعة لكم».

استدعاني عبدالناصر ووزير خارجيته محمد فوزي إلى غرفته وقال إنه يتوقع أن تكون هناك مؤامرة سرية (ولم يكن قد مر عامان على حرب السويس آنذاك) . وعلمنا أن الطائرات البريطانية في ذلك الوقت وبالاتفاق مع إسرائيل قد طارت فوق أراضيه في طريقها إلى عمان. ويتوقع أن تكون عملية إنزال القوات الأمريكية في لبنان هي مقدمة لشيء ما على نطاق واسع ولكن ما هو ؟ وما هو المتوقع من تركيا إذن ؟ (فقد انعقد في أنقرة آنذاك اجتماع لمجلس حلف بغداد وتم اغتيال وصي العرش عبد الله وكذلك نوري سعيد في تلك اللحظة التي اعتزموا فيها التوجه إلى أنقرة) . وفي ظل هذه الأجواء، توصل ناصر إلى نتيجة مفاداها أنه لابد وأن يلتقي مع خروتشوف شخصياً في الحال . ولكنه أراد معرفة رأينا في البداية وطلبنا منه إمهالنا نصف ساعة للتفكير ثم أخبرناه برأينا. فقد كانت دوافع الموافقة والرفض على هذا القرار متساوية تقريباً لدرجة أنه يتعين عليه أن يأخذ القرار النهائي بنفسه . وقال : «حسناً، سأذهب أنا» . وتم إرسال برقية من القاهرة بشفرة آمنة إلى خروتشوف من اليخت: «أريد أن ألتقي معك في المكان المناسب لك قبيل عودتي إلى القاهرة . أنا في الطريق إلى بريوني وآمل أن تكون إجابتك بالموافقة».

عندما دخلت المدمرة إلى ميناء بولا، التقى بنا وزير خارجية يوغسلافيا بابوفيتش في قارب صغير . وأبلغنا الوزير برد خروتشوف قائلا : «إنه في انتظار ناصر في موسكو إذا ما كان ذلك مناسباً لناصر، وإن لم يكن مناسباً فليختر

مكانا آخر مناسبا له «. اجتمعنا في مكتب تيتو ورأينا غالبية كبار رجال دولته بما فيهم بابوفيتش وجوشيناك – وزير الدفاع . اتفقوا جميعاً على أن الوضع بات خطيرا, وشرح لهم ناصر أسباب طلبه لقاء خروتشوف .

أرسل إلينا خروتشوف طائرة « تو ـ ١٠٤» كانت في انتظارنا في ركن بعيد بالمطار، إلا أن حجمها الضخم كان واضحاً في عتمة الظلام، حيث لم يسبق لنا رؤية طائرة بمثل هذا الحجم . صعد خمسة أفراد على متنها وهم : عبدالناصر، محمود فوزي، حسن صبري الخولي – سكرتير عبد الناصر، أحد الحراس الشخصيين لناصر وأنا . وظل الباقون بما فيهم زوجاتنا في يخت «الحرية» لا يعلمون عنا أي شيء .

اقترب الطيار الروسي من عبد الناصر وأدى التحية له وسأله بالانجليزية : « ماذا تأمرني يا سيدي ؟» أجاب ناصر أننا سنطير إلى موسكو . رأيت علامات الدهشة على وجه ذلك الطيار، وكأنه يتوقع أن نطير إلى القاهرة مثلا, واندهش كثيراً عندما تم تغيير خط سير رحلته .

استغرقت الرحلة حوالي ساعتين ونصف طيران، ومع بزوغ الفجر بدأت الطائرة تهبط إلى مطار فنوكوفا، تم سحب الطائرة بعيداً عن محطة المطار، ووضعوا السلم جانباً ورأينا ثلاثة سيارات في انتظارنا، كان بهم كوسيجين، ميكويان، والجنرال سيروف – رئيس المخابرات الحربية، و سابوليف – المترجم الشخصي لخروتشوف . وصلنا إلى فيلا صغيرة في إحدى ضواحي موسكو. نظر ميكويان إلى الساعة وقال : «أنها الآن السادسة .ارتاحوا قليلاً وبعد ذلك نبدأ المباحثات . وسيصل خروتشوف في وقت لاحق، فذلك أفضل من الناحية الأمنية . «هل يناسبكم أن تبدأ المباحثات في العاشرة ؟» .

وافقنا ولكن بدا الموقف كوميدياً إلى حد ما، فقد كان لزاما علينا التواصل مع سفيرنا، طالما أن هناك أفراداً قليلة بالقاهرة بما فيهم المشير عامر على علم بالمكان الذي نحن فيه، حيث صدر لهم الأمر بالتواصل معنا

عبر السفارة المصرية بموسكو من خلال الشفرة الأكثر أماناً والتي لا يعلم مفتاحها سوى حسن صبري الخولي . وفي تمام السادسة والنصف، جاء اتصال من وزارة الخارجية بسفيرنا في موسكو، الكوني، وطلبوا منه التوجه على الفور إلى الوزارة. ونظراً لأن سيارات السفارة لا يمكن أن تعمل في ذلك الوقت، فقد صدر الأمر بتجهيز سيارة خاصة له في غضون خمس دقائق . توقع الكوني أنه لابد أن يكون هناك أمرا خطيرا ويمكن أن يكون إنذارا من الغرب . ارتدى السفير ملابسه على الفور وتوجه نحو السيارة المجهزة له واكتشف أنها لا تسير إلى طريق الوزارة، بل تسير خارج المدينة . دق على الزجاج الذي يفصله عن السائق، غير أن السائق لم يجبه بأي شيء . توقع الكوني أن يكون تعرض لعملية خطف، لكن من يخطفه ولماذا، لا يعلم . فقد كانت السيارة تسير بسرعة كبيرة، وباءت بالفشل كل محاولاته للتواصل مع السائق .

وفي النهاية دخلت السيارة من بوابة الفيلا التي ننتظر بها . دخل الكوني ووجدنا نتباحث مع فوزي . وتعجب الكوني قائلاً : «إما أن أكون قد جُننتُ أو الروس هم من أصابهم الجنون «وأضفت أقول : «أو نحن من أصابنا الجنون».

وفي تلك اللحظة خرج عبد الناصر من الفيلا وشعر الكوني بأنه تلقى أكبر صدمة في حياته .

وصل خروتشوف تمام الساعة العاشرة، كان عبد الناصر في انتظاره عند المدخل الرئيس، غير أن خروتشوف دخل من مدخل آخر ووقف خلفنا، وقال : «إنني سعيد جداً لأنك وصلت إلى هنا طائراً . نحن قلقون للغاية . ولا نريدك أن تعبر البحر المتوسط في سفينة صغيرة، فهذا البحر مليء بالأفراد الذين يرحبون بتقديمك طُعماً للسمك».

عندما تحدث خروتشوف، بدا واضحاً أن القيادة السوفيتية تدرك خطورة الوضع ولكنها استقبلته بتوجس، فإنجاز القومية العربية لم يتناسب مع التحليل الماركسي المعتاد . قال خروتشوف : «يعلم الإمبرياليون أن حربهم

الحقيقة ضدك، وأنك بالنسبة لهم رمز نضال العرب ! وإنني أدعوكم لشرب نخب على شرف نجاحكم (كان ذلك في العاشرة صباحا)، لا، لن أشرب الفودكا اليوم . سأصبح مسلما اليوم فقط ! من الآن لن يكون هناك أي تناول للخمور وأدعوكم لتناول عصائر الفواكه على شرف نضال العرب وقائد كل العرب !».

حملت الجملة الأخيرة هذه معنى كبيراً، فهي تعني أن القادة السوفييت قرروا تحويل مصر إلى مركز لتنسيق كل علاقاتهم مع العرب، ذلك القرار الذي أوضح إنهم غير قادرين على تنفيذه .

بدأت المباحثات وأخذت أسجل ما يُقال . بدأ عبد الناصر في شرح الموقف كما يراه من وجهة نظره . وكان يرى انه من المستبعد أن يقوم الأمريكان والإنجليز بتنزيل قواتهم في بيروت وعمان على سبيل التسلية، بل من المتوقع أن يكون ذلك مقدمة لحدث أكبر، « ولهذا فقد جئتُ إليكم لكي أعرف موقفكم».

أجاب خروتشوف قائلاً : «أريد أن تعلم قبل أي شيء إننا أقوياء وأقوى من الأمريكان أنفسهم . ومن السهل القضاء على ذلك الأسطول الذي أرسلوه إلى مياه البحر المتوسط بقيادة قبطان مجنون . فنحن نمتلك سلاحا قادرا على تحويل الأسطول الأمريكي السادس إلى توابيت تحمل جثث بحارتهم . غير أن

المشكلة الرئيسية ليست في السلاح، وإنما هي قضية سلام أو حرب . فالموقف خطير بالفعل، وأعتقد أن الفائز فيه هو من يتمتع بأعصاب قوية . وهذا هو أهم ما يميز الصراع في وقتنا الحالي، فهؤلاء ذوو الأعصاب الضعيفة لابد من إعدامهم بالرصاص .

لقد دخلنا في لعبة تدور قواعدها بسرعة كبيرة ولابد وأن يتحرك كل من فيها بسرعة كبيرة ولا يمكنني الحكم على الخطوات التي يعتزم اتخاذها اللاعبون الآخرون. فهي أشبه بمن يلعب لعبة الشطرنج في الظلام الدامس . هناك زعزعة في الثقة نحو الغرب، وجاءت الثورة العراقية لتمثل مفاجأة غير متوقعة للغرب . ودالس لم يكن ليفهم أي شيء في أي وقت، فدائماً ما يتحدث عن الديمقراطية والدين وهو لا يعرف أي شيء عن الدين .

بالنسبة لحلف بغداد فقد اختفي في ضربة واحدة، فهل من الممكن أن نتصور حلف بغداد بدون بغداد ؟ هل يمكن أن نتصور أن تعارض بغداد حلفها؟ اعتقد أن مجرد هذا الاعتبار يكفي لكي يصيب دالس بانهيار عصبي. أريدك أن تعلم ما الذي قاله إيدن لبولجانين ولي عندما كنا في زيارة للندن في عام ١٩٥٦، قال إنه إذا ما رأى أن هناك خطراً من إمداد بريطانيا بالنفط من الشرق الأوسط، فإنه سيلجأ لاستخدام القوة . وكان يتحدث بمنتهى الجدية. وما يحدث الآن يؤكد كلامه . أجبناه بأن هناك شيئا ما ينذر بهذه المخاوف. وقلنا له أن يستمر في عمله المخابراتي . وسألته ماذا سيفعل العرب بالنفط إذن، فالاتحاد السوفيتي ليس بحاجة لنفط العرب، فنحن نقوم باستخراج كميات من النفط تفوق معدل استهلاكنا له، ولسنا من الجهات التي تقوم بشراء النفط من العرب، بل أنتم المشتري الطبيعي له . أضاف خروتشوف، عليك أن تضع في اعتبارك أنه بالنسبة لنا نحن وليس لإيدن فهناك فرق بين المشتري واللص . فدول الغرب لا ترغب في شراء هذا النفط، بقدر ما ترغب في سرقته . والثورة التي وقعت في العراق باتت تشكل خطراً على هذا النفط، إنني لا أعلم أي شيء عن القيادات الجديدة بالعراق، ولكن الأهم بالنسبة لهم هو الثقة في

الغرب والثقة بعدم توقف صفقات بيع النفط . فلابد وأن تلعب بمنتهى الحذر وتذكر دائماً أن اللعب يكون على الأعصاب . فنحن نعيش في عصر صعب ومعقد . وشبح اندلاع حرب نووية يطل على المشهد طوال الوقت، والمخاطرة الكبرى ستكون في بداية اندلاع تلك الحرب لأنها ستكون بمثابة صدمة تنذر بأحداث غير متوقعة . وإذا ما استطعت تخطي هذه المرحلة بسلام، فستكون الأمور على ما يُرام فيما بعد . لابد, وأن يقتنع الغرب بأنكم على استعداد للتفاهم المتبادل معه . وعليك وأن تظهر المرونة في ساعة النصر» .

أجاب عبد الناصر بأنه يتفق بالكامل مع التحليل الذي افرده خروتشوف وقال : «لكن من المهم كذلك أن يشعر الغرب أن الاتحاد السوفيتي مستعد لاتخاذ موقف حاسم . فهل من الممكن أن تصدر تصريحات على سبيل المثال تفيد بأنه إذا ما قام الغرب بشن هجوم أو التهديد به فإن الاتحاد السوفيتي مستعد للتدخل ؟» .

أجاب خروتشوف قائلاً : «هذا سيعقد الأمر، لأنه سيزيد من حرارة الموقف، الأمر الذي سيؤدي إلى عواقب غير محمودة . فدرجة الحرارة قد وصلت إلى مرحلة الغليان، ولا يجب علينا زيادتها».

قال عبد الناصر: «لكن لابد وأن يشعروا إنكم على استعداد للتدخل بشكل قوي».

خروتشوف : «ينبغي عليهم أن يشعروا بذلك من تلقاء أنفسهم».

استمرت المناقشة لبعض الوقت، وعندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف، كان يتعين على خروتشوف المغادرة لحضور اجتماع المكتب السياسي . ووعدنا بالعودة على الغذاء في الثالثة .

قال لنا خروتشوف إنه تقرر زيادة حجم المناورات التي يقوم بها حلف وارسو، المقرر أن تبدأ غرب الحدود المشتركة بين بلغاريا وتركيا . وأضاف أنه في الغد سيتم الإعلان بشكل موسع عن تلك المناورات وهذا سيكون له تأثير

هام. سيترأس الفريق جريتشكو ونصف مليون جندي ولكن لابد وأن يكون واضحا أن هذه مجرد مناورات فحسب. أضاف خروتشوف كذلك أنه يتعين على قادة العراق الجدد أن يلعبوا دورهم ويعطوا الغرب الضمانات المناسبة.

كان واضحا مدى اندهاش خروتشوف من نسف ذلك الحماس الوطني بالعراق، وتلك الحشود من المتظاهرين الذين رحبوا بعبد الناصر وكأنه شبه إله، وقال «هؤلاء الأفراد هم أفرادكم أنتم". وسأل هل نحن على دراية بالقيادات الجديدة بالعراق، أجابه ناصر بأنهم يتواصلون معنا وأدركنا من خلال رسالة وصلت من القاهرة، أنهم يطلبون لدينا المساعدة العسكرية. ويمكننا تقديم كل شيء لهم بسهولة، حيث توجد في القاعدة العسكرية البريطانية السابقة في منطقة قناة السويس الكثير من الأسلحة والمهمات الحربية الملائمة للجيش العراقي. وقد بدأنا إرسالها لهم جواً كما أرسلنا بعثة اتصالات إلى بغداد».

أمطر خروتشوف عبد الناصر بوابل من الأسئلة عن الوضع في العراق وباقي الدول العربية الأخرى، وأسئلة عن اللغة، الدين، العادات والتقاليد، السلالة الهاشمية ووضعها الديني ... وطرح سؤالا مباشراً كان دائما ما يشغل ذهنه: «هل هناك فرصة لكي تتحدوا مع العراق؟» أجابه ناصر: «لا أعلم، ولكن أعلم أن العراق يتعرض لمشاكل جمة ومسألة الوحدة معه لا يجب وأن تزيد من تعقيد تلك المشاكل. فالعراق لا يشبه سوريا, وهناك مشاكل بالطبع بين مصر وسوريا. وأعتقد أن أي اتصال بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق سيتم دعمه وهذا سيكون مرتبطاً بالكثير من الظروف ولا يمكنني تحديد ذلك إلا بعد الالتقاء مع القيادات الجديدة لبغداد لاستيضاح الموقف».

تشكل لدى خروتشوف انطباع خاص بعدما علم أن مجموعة من أنصار عبد الناصر استحوذت على مقر قيادة حلف بغداد وقال ناصر: « لقد نقلنا كافة الأوراق والمستندات التي تم العثور عليها هناك إلى القاهرة». حملق خروتشوف عينيه و سيروف ابتلع لعابه.

ثـم بدا الجو العام للمباحثات أكثـر خمولا. وبدا الجميع في تبادل النكات والحكايات. وقال ناصر إنه يريد أن يبقى في دمشق قبيل عودته إلى القاهرة لأنها مركز الأحداث . كان سيروف في انتظار معلومات من السفير الروسي في طهـران والذي صدر له الأمر أنـه في حالة الضرورة يقوم بإيقاظ الشـاه الإيراني ويطلب منه باسـم خروتشـوف أن يسـمح بمـرور الطيران السـوفيتي عبر مجاله الجـوي . وقد جاء الرد تمام العاشـرة مسـاء وطرنا بالفعـل إلى باكو (عاصمة أذربيجان- المترجمة) كان المشهد العام بالمطار أشبه بحالة الطوارئ : فقد بدأت المناورات وكان هناك ما بين ٥٠٠-٦٠٠ طائرة تقف في الملعب الصيفي في صورة أسراب .

وبعـد تناولنا لطعام الإفطار، اقـترب إلينا قائد الطائـرة ليعرض علينا نص البيان المنشور من المناورات الذي وضع ليتواءم مع تلك الأجواء الدرامية لهذا الموقف.

obeikandl.com

مباحثات تحت سماء موسكو[٤٣]

لقد نسيتُ ذلك العام، بل ذلك الشهر الذي وقع فيه الانقلاب العسكري في بغداد[٤٤] ووصل الجنرال قاسم إلى السلطة، ولكني أتذكر أن هذا الحديث كان في فصل الصيف. وقد رحبنا من جانبنا بهذا الانقلاب، لأن نظام الحكم الذي كان قائماً بالعراق آنذاك كان من أكثر النظم الرجعية، والإرهابية وكان لابد من التخلص منه منذ وقت طويل، وقد نجح قاسم في ذلك. فقد أخذ يتقدم ويتحرك وكان هناك مرابطة للكتيبة التي كان يقودها وعندما مر عبر أراضي العراق، قام بإسقاط الحكومة. وتم اغتيال ديكتاتور بغداد[٤٥]، وكان الخليفة آنذاك لم يبلغ سن الرشد ولا أعلم ما الذي حدث معه بعد ذلك. وعلى أية حال فقد نجحت الثورة قولاً واحداً ومن الأرجح أن نصف ما حدث بأنه انقلاب ولكنه في المرحلة الأولى كان يسير نحو الاتجاه التقدمي وتم إضفاء الشرعية علي الحزب الشيوعي في بغداد والقوى التقدمية. لقد ساندنا قاسم ودعمنا ذلك الانقلاب الذي وصفوه بالثورة. واعترفنا بأن ما حدث كان حطام ثورة على نظام المجتمع والذي وصف قبل ذلك بأنه انقلاب.

عندما وقع الانقلاب في بغداد كان عبد الناصر في يوغسلافيا، وقبل حدوث الانقلاب بالعراق، كانت الوحدة بين مصر وسوريا قائمة وقد تم الانتهاء من كافة الإجراءات الرسمية الخاصة بتشكيل حكومة موحدة بين البلدين. ولا أتذكر الآن ما هي تلك الحقوق الدستورية التي كانت مكفولة لسوريا،

(٤٣) الأرشيف الحكومي الروسي للتاريخ المعاصر، ن.س.خروتشوف، حافظة رقم ٢، ملف رقم ٥٢ قضية رقم ٨، الأسطر من ٥-١١، نسخة مطبوعة على آلة كاتبة.

(٤٤) وقع الانقلاب العسكري في بغداد في الرابع عشر من يوليو لعام ١٩٥٨

(٤٥) المقصود به هو نوري سعيد (١٨٨٧-١٩٥٨)، حيث كان يشغل منصب رئيس وزراء العراق آنذاك.

obeikandl.com

ولكن كان واضحاً أن سوريا قد سقطت تحت قبضة عبد الناصر وأنه في الطريق للقضاء على كل البدايات الديمقراطية . وكان الحزب الشيوعي قد وصل إلى وضع غير مشروع في البلاد ووضعوا سوريا تحت أسنان المشط المصري . وأكرر مرة ثانية أننا لم نساند ذلك، وأن هذا قد أساء لصورة عبد الناصر. فهو يعلم جيداً أننا ندعم الحزب الشيوعي في سوريا وبغداد . فهل من المعقول أن يقود الحزب الشيوعي في سوريا حرباً ضد مصر أو ضد عبد الناصر، الذي ندعمه .

عندما وصل ناصر إلى يوغسلافيا، أرسل تيتو برقية لنا يلخص فيها طلب ناصر لاستقباله في الاتحاد السوفيتي وهو متنكر. أجبنا أننا على استعداد للقائه والتباحث مع ناصر – رئيس جمهورية مصر العربية[٤٦] .

طار ناصر إلينا، تبادلنا الآراء حول كافة الموضوعات التي من الممكن أن يتطرق إليها المصريون وحددنا رأينا فيها، وكلفوني للقاء ناصر وجهاً لوجه . ولكن يبدو أنه كان هناك شخص آخر من وزارة الخارجية الروسية، بالرغم من وجود مترجم وأفراد يسجلون الحديث . وصل ناصر وأعتقد أنه هذه كانت هي المرة الأولى التي أتعرف فيها عليه[٤٧] وقد ترك لدى انطباع جيد : فهو شاب صغير السن، ذكي، الابتسامة لا تفارق وجهه، لقد أعجبني قولا واحدا . فقد التقينا معه بعيداً عن المدينة في منطقة نوفي اجاريوفي، وحضر من الجانب المصري كل من ناصر، السفير غالب[٤٨]، فهو شخص لطيف، ذكي، جدير بالاحترام . ويعرف الروسية جيداً لأنه كان المترجم الخاص بعبد الناصر . وكان لدينا مترجمنا الخاص ولكن لا يحضرني اسمه الآن . وصلنا إلى مرحلة تبادل الآراء، وكان الموضوع الأكثر استحواذا على باقي الموضوعات هو الوحدة بين مصر

(٤٦) المقصود بالأدق هو الجمهورية العربية المتحدة .

(٤٧) أخطأ ن.س.خروشف، فقد تعرف على ناصر أثناء زيارته للاتحاد السوفيتي في الفترة من ٢٩ ابريل – ١٦ مايو ١٩٥٨

(٤٨) أخطأ ن.س.خروتشوف، حيث كان السفير مراد غالب سفيراً للجمهورية العربية المتحدة بالاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩٦١–١٩٧١ وكان السفير المصري القائم آنذاك هو محمد الكوني، الذي تولى هذا المنصب في الفترة من ١٩٥٥–١٩٦١ .

وسوريا . حيث ظل ناصر يؤكد على أهمية وضرورة تلك الوحدة وبالنسبة لي فقد أخذت أوضح موقف قيادة الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية . أرى من وجهة نظرنا أن هذه الوحدة لا تعود بأن نفع على سوريا وبالتالي لن تعود بنتائج ايجابية على مصر، فهذه الوحدة كانت مصطنعة ولم تكن تقدمية و نحن نأسف عليها .

كان ناصر يتحدث بمنتهى الثقة أثناء المباحثات، لدرجة أنه احتد في حديثه وقال : « أنت تقول أننا ندعم خالد بكداش؟ فهل تريد أن يحكمنا بكداش هذا ؟ نحن لا نستطيع تحمل ذلك، فهذا « أمر مستحيل «. فقد استنتج عبد الناصر أن بكداش يقف ضد الوحدة وأننا ندعمه وهذا هو خطأنا . أعتقد أنه في هذا الحديث أراد ناصر أن يوضح أن هذه مجرد بداية وأن هذه الوحدة من الممكن أن تستمر . أكرر ثانية أننا لم نساند فكرة الوحدة هذه، وقلتُ لناصر أن مصر القوية هو أمر لا يزعجنا، بل على العكس فنحن سعداء بذلك . وسنبذل قصارى جهدنا لآجل تعزيز مكانة مصر وليس مصر فقط، بل والعالم العربي أجمع حتى وأن اتحد في دولة عربية موحدة ذات ٥٠ مليون نسمة . فالعالم العربي لديه مساحات شاسعة من الأراضي، غنية بالنفط، والثروات الطبيعية المتنوعة . كما أن الموقع الجغرافي للدول العربية جيد للغاية وهذا لا يعارضنا .

«أقول إننا نستجمع القوى الآن، ولدينا ترسانة عسكرية قوية، تجعلكم لا تمثلون قوة تزعجنا، فنحن نفكر معكم في تجنب شن أي حرب، وضرورة توحيد جهودنا ضد القوى الرجعية. فما سبب اعتراضنا إذن على فكرة الوحدة بين الدول العربية؟ فنحن لا نساند هذه الفكرة الآن بسبب ظروف معينة. وأعتقد أنكم أخطأتم عندما أقدمتم على هذه الفكرة. فهل كنتم تعتقدون أنها ستعود بالنفع على مصر؟ أرى أنها على النقيض من ذلك، فقد أضعفت موقفكم».

بالطبع لم يكن عبد الناصر ليوافق على هذا الحديث، قلتُ له: «سيادة الرئيس، إن الحزب الشيوعي لديكم يعمل وكأنه تنظيم سري، وتعمل قيادته وهي قابعة داخل السجون. أما في سوريا نجد أن الحزب الشيوعي ينعم بالحرية. فأنتم ليس لديكم أي نظام برلماني من الأساس، أما سوريا فقد اعتادت على النظام البرلماني. يوجد في سوريا برلمان وأحزاب تعبر عن آرائها ومواقفها كما يوجد لدى سوريا ديمقراطية بورجوازية. يمكن القول بأن سوريا من أكثر الدول العربية ديمقراطية. أما الآن بعد حدوث الوحدة مع سوريا، فقد حرمتموها البرلمان وتحملتكم على عاتقكم حل كافة المشاكل. فهل هذا سيعزز اتحادكم مع سوريا؟ ـ هذا ليس صحيح، لأنهأمر مؤقت. ومن المتوقع أن يبدأ الصراع وستتكبدون فيه الخسارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن مستوى المعيشة في سوريا يفوق نظيره في مصر وبعد تلك الوحدة سيكون هناك وحدة كذلك للموارد المالية، ولكن من سيربح؟ مصر ستربح وسوريا ستخسر، فقد كانت سوريا تقوم بتوريد القمح قبل تلك الوحدة، ولكن بعدها لن تقوم بتوريده للخارج لأن مصر تستهلك القمح أكثر من معدل إنتاجها له. وبالتالي فمن الطبيعي أن يذهب المعدل الفائض من القمح السوري إلى مصر. حُرمت سوريا كذلك من العملة الضرورية لتطوير اقتصادها وهي تعاني الآن من هذه المسألة. لقد تعجلتم الأمر, وستندمون على ما حدث.» « إنني لا أوافقك الرأي، فأنتم لا تدرسون القضايا العربية بشكل جيد. وإذا ما تحدثنا بصراحة حول ما إذا كنتُ أريد تلك الوحدة أم لا، وهل فكرتُ فيها؟ سنجد أن السوريين

أنفسهم هم من دفعونا نحو تلك الوحدة و نحن وافقنا عليها».

قلتُ له : «إن حديثك صحيح . لقد أدركنا بالفعل أن سوريا هي القوة الرئيسية وراء فكرة الوحدة، بل ومن الممكن أن تكون هي صاحبة تلك المبادرة . ولكن لماذا فعلت ذلك إذن ؟ لأن الثورة قد بدأت بذورها تنبت في سوريا وبدأت القوى الديمقراطية والحزب الشيوعي يعززون نفوذهم على الشعب السوري . ولهذا فقد ارتجف أصحاب رأس المال، أصحاب البنوك والمصارف أمام القوى الديمقراطية والحزب الشيوعي . ورأوا أن الوحدة مع مصر ستنقذ رأس مالهم ونظامهم البورجوازي الرجعي وبأيديكم سيتم لجم القوى التقدمية الصاعدة . فقد كانوا على استعداد لتحمل أية خسارة مقابل الحفاظ على كل مقدراتهم وممتلكاتهم فيما بعد . وهم على يقين من أنهم غير قادرين على التغلب على القوى التقدمية بمفردهم داخل البلاد . وهذا هو تصورنا للموقف في سوريا، ولهذا فإننا نرى أن موقف خالد بكداش صحيح وطبيعي و نحن ندعمه . وستندمون على تلك الوحدة فيما بعد . ستنهار جمهوريتكم الموحدة».

لن أضيف الآن مزيد من الحجج والأدلة،ولكني على يقين من صحة ما أقول . فقد تم تسجيل حديثي على يد مترجمكم وممثل وزارة الخارجية وكذلك السفير المصري غالب .

قضينا طوال اليوم سويا، وتناولنا الغذاء في الهواء المنعش على ضفاف نهر موسكو، كانت الأجواء جيدة تماما . فقد كان الجو رائعاً : يوم صيفي رائع في موسكو وعلى الرغم من ذلك فقد ظهرت مشكلة معقدة . فقد كنا نتحرك في إطار الحفاظ على جو الصداقة الذي يخيم على المباحثات وما حدث كان تحليلاً للأوضاع التي تفاقمت في منطقة الشرق الأوسط بين مصر وسوريا . وكل واحد فينا كان متمسكا برأيه، فقد رأى ناصر أن ما قام به كان صحيحاً ولا خيار آخر وأن هذه ظاهرة تقدمية فحسب وقد حدثته عن رأي .

لا أتذكر الآن متى قام قاسم بعمل الانقلاب : هل عندما كان عبد الناصر في يوغسلافيا أم عندما كان لدينا . وعلى أية حال، فقد ترك رئيس الجمهورية العربية المتحدة انطباعاً جيداً لدي وكذلك لدى باقي الرفاق الذين التقى بهم ولكن لا يحضرني أسماؤهم الآن . لأنه لم تكن هناك أية مراسم رسمية لاستقباله، فقد أتى إلينا متنكراً، وتحدثنا سوياً وجهاً لوجه وفجأة وقع الانقلاب العسكري بقيادة قاسم في بغداد .

كانت مشاعر القلق قد بدأت ترتسم على وجه عبد الناصر وقال : «لابد وأن أعود إلى بلدي، سأذهب الآن إلى يوغسلافيا ونبحر منها مع الأسرة للعودة إلى الإسكندرية» .

فكرتُ وتحدثتُ معه عن أرائي واعتباراتي . سيادة الرئيس لا أنصحك بالعودة الآن عبر البحر المتوسط . يبدو وأن الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا قد أعدوا القطع العسكرية التابعة لهم في وضع الحرب بسبب ذلك الانقلاب الذي وقع في بغداد . فهناك حالة من التوتر ذات طابع عسكري تخيم على الأجواء هناك، كما تم إنزال القوات الانجليزية في ليبيا في ذلك الوقت . قلتُ : «إنكم لا تحظون بتعاطف دول الغرب؛ ولهذا فلا داعي لإغراق سفينتكم في بحر قوى الأعداء ولا يمكن التوضيح لأي شخص أسباب مرور السفينة التي يوجد بها رئيس الجمهورية العربية المتحدة . لاحظ أنك تسير في يخت غير مسلح، حتى وإن كان مسلحاً فلا يمكن فعل أي شيء، لأن الغواصات والطائرات تتحرك هنا سريعاً ذهاباً وإياباً . وهذه ستكون فرصة سانحة للتخلص من الرئيس، وعندئذ يمكن القول بأن الرئيس قد غادر يوغسلافيا ولكن سفينته لم تصل إلى الإسكندرية . أنصحكم بالسفر عبر الطائرة دون المرور فوق مياه البحر المتوسط، بل عن طريق باكو – إيران – العراق – سوريا وعندما تصل إلى هناك ابحث عن أي طريق للعودة إلى القاهرة» وقد اتفق معي في هذا الرأي .

لا يمكـن وصف علاقاتنا مع إيران آنذاك بأنها جيدة ولهذا نسـتخدم المجال الجـوي لها، حيـث كان لابد من إبـرام اتفاق محدد لأجل هـذا الغرض . وكنتُ متأكـداً مـن أن شـاه (٤٩) إيران لن يرفـض ذلك، لأنه عندمـا كان في زيارتنا، شـعرنا وكأنـه يبـدي اهتمامه نحو تحسـين العلاقـات فيما بيننـا . وكان موقفنا دائماً يتجسـد في تحسـين العلاقات مع إيران، خاصـة وأنها دولة جوار، وكذلك الحال مع باقي دول الجوار الأخرى .

عندما وافق ناصر على خطة رحلة الطيران التي اقترحناها عليه، طلبنا الإذن بالسـفر عبر طائرتنـا، ولا أتذكر تلك الرواية التي قدمناهـا آنذاك، ولكننا بالطبع لم نذكر أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة سيكون على متن تلك الطائرة، وسـرعان مـا حصلنا على إذن المـرور عبر المجال الجـوي لإيران، وغادر ناصر وتلقينا خبرا يفيد بوصوله إلى سوريا .

(٤٩) شاه إيران في ذلك الوقت كان محمد رضا بهلوي .

obeikandl.com